

أحسن الحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ " (٢١-٢٣ الزمر).

أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أصنافاً متعددة، منهم الفقهاء، ومنهم الحكماء، ومنهم العلماء، وكان هناك جماعة منهم مستجدين في دخول الإسلام وهؤلاء كان فيهم شيء من البداوة والجفاء، فكان يعلمهم الله بالقرآن.

على سبيل المثال جماعة منهم ذهبوا إلى حضرة النبي ساعة الظهيرة وهي الساعة التي كان يقبل فيها سيدنا رسول الله ﷺ، ويقول:

{ اسْتَعِينُوا بِالْقَيْلُولَةِ عَلَى الْقِيَامِ }^١

ويقول:

{ قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقِيلُ }^٢

فذهبوا لحضرة النبي، فقالوا لهم: إنه نائم، وهم كانوا قادمين من البادية، وحديثي الدخول في الإسلام، فوقفوا خارج البيت ينادون بصوت مرتفع: يا محمد يا محمد اخرج لنا، فلم يدقوا الباب ولم يستأذنوا، فأنزل الله تعالى قوله: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا

^١ العليل لابن أبي حاتم

^٢ المعجم الأوسط للطبراني عن أنس

بَجَهْرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ " (٢ الحجرات) الذي يرفع صوته فوق صوت رسول الله عمله لا يُقبل.

حضرة النبي كان ينزل عليه الوحي بالقرآن، وعندما كان ينزل عليه الوحي فإن سيدنا رسول الله يكون في حالة غير عادية، فيعرق عرقاً غزيراً ولو في الشتاء البارد، ولا يدري بمن حوله لأنه يكون في حالة تواجد كلي مع من يقول للشيء كن فيكون.

وعندما يقرأ القرآن على أصحابه يقرأه ثلاث مرات، منهم من يحفظ القرآن من أول مرة، ومنهم من يحفظه من القراءة الثانية، والأخيرين يحفظونه من القراءة الثالثة، وهذه كانت مجالس النبي، يقرأ القرآن ويعلمهم أحكام الإسلام.

أحسن الحديث

فجاء جماعة من هؤلاء، قالوا: يا رسول الله نريد منك أن تحدثنا بأحسن الحديث! فأنزل الله: " **اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** " القرآن أحسن الحديث، ووصف الله القرآن: " **كِتَابًا مُتَشَابِهًا** " متشابهاً في معانيه، وفي ألفاظه، وفي عباراته، ولا يوجد تناقض بين العبارات، ولا اختلاف بين معاني الآيات، وإنما كلها إعجاز، والعرب مع فصاحتهم وبلاغتهم لما تحدوه طلب منهم أن يأتوا بعشر آيات مثل هذه الآيات فلم يستطيعوا، وحتى آية واحدة لم يستطيعوا، لأن هذا كلام الله، ولا يستطيع أحدٌ من المؤمنين أن يأتي بشبيه له أو مثيل له لأنه كلام الله تبارك وتعالى.

" **مَثَانِي** " هذا الكتاب مثاني، ومثاني يعني نكرهه، فنحن نكرر الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة، ونكرر القرآن في الصلوات ونعيده، لنعيد هذه المعاني على قلوبنا، فنستجيب لله تبارك وتعالى.

وأيضاً هذا القرآن فيه الشيء وضده، ففيه الوعد وفيه الوعيد، وفيه الجنة وفيه النار، وفيه الجلال وفيه الجمال، وفيه القبض وفيه البسط، كل المعاني وضدها موجودة في كتاب الله، لأنه شمل كل ما يحتاجه الإنسان في هذه الحياة، وما يسعده يوم لقاء ربه تبارك وتعالى.

" تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ " تقشعر يعني تنقبض، فالمؤمنين الأتقياء الأنقياء عندما يسمع أحدهم آيات كتاب الله يحس برجفة تسري في جسمه، ورعشة نتيجة صدى هذه الآيات التي تردت في قلبه.

ثم بعد ذلك يجد جلده وأعضاؤه لانت للعمل بكلام الله: " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ " فيحدث له انبساط وسرور.

باختصار عندما يسمع الإنسان آيات الخوف يحس بالجلال والقهر فيقشعر ويخاف، كالأيات التي تتحدث عن جهنم أو آيات العذاب أو آيات البعد، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذاته ابيض سبع عشرة شعرة من شعره، وقال:

{ شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا }^٣

وفي رواية أخرى قال:

{ شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَأَقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ }^٤

لماذا سورة هود؟ بعض السادة العارفين قال: لأن الله قال فيها: " فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ " (١١٢ هود) شاب شعر النبي عندما سمع هذه الآية، وقال بعض السادة الصالحين: هذه السورة ذكر الله فيها كلمة البعد كثيراً، كلما ذكر قوم نبي من الأنبياء يذكر البعد: " أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ " (٦٠ هود) " أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ " (٦٨ هود) فعندما يسمع كلمة (بعداً) يخاف على أمته، فيقشعر جلده ويرتجف فؤاده، ويبيض الشعر.

وكذلك أخواتها، سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير، لأن فيها آيات تتحدث عن القيامة وأهوال القيامة، فهذه جعلته يقشعر جلده ويبيض شعره صلوات ربي وتسليماته عليه.

وعندما يقرأ الإنسان آيات الجنة، وآيات النعيم، وآيات القرب من الله، وآيات الرأفة والرحمة

^٣ الأحاديث المختارة ومسند البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما

^٤ الحاكم في المستدرک وابن حجر في المطالب العالیة عن أبي بكر الصديق

ولين الجانب من حضرة الله، يفرح وينبسط ويُسِر، وهذا يُسمى الإنبساط أو يُسمى البسط أو يُسمى الجمال.

ولذلك أحد الصالحين المعاصرين وهو الشيخ أحمد رضوان رضي الله عنه، وكان الدكتور عبد الحلیم محمود وقتها لا يزال عميد كلية أصول الدين، وكان رجلاً يحب الصالحين وكان يبحث عنهم أحياناً ومنتقلين، فذهب إلى الشيخ أحمد رضوان، وكان وزير الأوقاف في وقتها الشيخ الباقوري رحمة الله عليه، والشيخ الباقوري كان في بدايته مع الإخوان المسلمين ولذلك كان يميل إلى التشدد. فظل الشيخ عبد الحلیم محمود يكلمة إلى أن أقنعه أن يذهباً معاً إلى الأقصر ويزورا الشيخ أحمد رضوان هناك.

دخلوا على الشيخ أحمد رضوان، فقال له: هذا وزير الأوقاف، فقال له الشيخ أحمد: أنت الذي تمتحن الناس؟ فسكت، فقال له: أنا سأمتحنك كما تمتحن الناس، يقول الله: " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " (٢٨ الرعد) ويقول في الآية الثانية: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ " (٢ الأنفال) لماذا هنا تطمئن؟ ولماذا هنا توجل؟ فسكت الرجل ولم يتكلم، فقال له: الأولون واجههم بالجمال فاطمأنت قلوبهم، والآخرون واجههم بالجلال فوجلت وخافت قلوبهم. كلام الله ليس فيه تناقض أبداً، ولكن هذه حالة وهذه حالة، إذا سمع الإنسان آيات الجمال في كتاب الله والتي تتكلم عن الجنة والقرب من الله والمغفرة والتوبة وهذه الأمور العظيمة يُسر ويفرح.

وكان سيدنا بلال رضي الله عنه وأرضاه لا يقرأ آيات الوجل في الصلاة، وكان يقرأ دائماً آيات الجمال وينتقل بينهم، فسيدنا رسول الله قال له:

{ مَرَرْتُ بِكَ يَا بِلَالُ وَأَنْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ وَمَنْ هَذِهِ السُّورَةَ، قَالَ: إِيَّيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْلِطُ الطَّيِّبَ بِالطَّيِّبِ، فَقَالَ: اقْرَأِ السُّورَةَ عَلَى نَحْوِهَا } °

° مصنف عبد الرزاق، وفضائل القرآن للقاسم بن سلام

يعني هو يجب أن يسمع الطيب ويعيش في الطيب على الدوام، ولا يجب الحديث عن جهنم ولا أهوالها، وكل المتقين على هذه الوتيرة وعلى هذا الجمال وعلى هذا الكمال.

إذاً القرآن فيه كل هذه المعاني الإلهية، والإنسان المؤمن عندما يسمع الآيات التي فيها شيء من الجلال يُصاب بالوجل، وهذه الآيات وجهها الله في القرآن للكافرين والمشركين والعصاة والمذنبين، وهذا ليس لنا نحن.

وعندما يسمع آيات الجمال التي تخصه كالجنة ووصفها والحبيب وأخباره، فيفرح ويستبشر وينبسط فيذكر الله تبارك وتعالى ذكراً تعبيراً عن فرحه بما قدره الله تبارك وتعالى في كتابه: " ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ " قال ﷺ:

{ إِذَا أَقْشَعَرَ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، نَحَّاتَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا نَحَّاتُ عَنِ الشَّجَرَةِ الْبَالِيَةِ وَرَقُهَا

{

هدى الله

" ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ " كل هذا ليس منا ولا بإرادتنا، ولا نحصل عليه بأموالنا ولا بمناصبنا ولا بكل ما نستطيع، ولكن بالتذلل بين يدي الله، والإفتقار والمسكنة لله، والتضرع والدعاء لله، والإكثار من الركوع والسجود بين يدي الله، والتواضع لجميع خلق الله، ومن لم يُقدِّر الله له ذلك فلائنه ليس أهلاً لذلك، سيدنا موسى عليه السلام كفانا هذه المسألة فيقول:

{ يَا رَبِّ، خَلَقْتَ خَلْقًا فَجَعَلْتَهُمْ فِي النَّارِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ: أَنْ يَا مُوسَى، ازْرَعْ زَرْعًا، فَرَزَعَهُ، وَسَقَاهُ، وَقَامَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ حَصَدَهُ، وَدَاسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ زَرْعُكَ يَا مُوسَى؟ قَالَ: رَفَعْتُهُ، قَالَ: فَمَا تَرَكْتَ مِنْهُ؟ قَالَ: مَا لَا خَيْرَ فِيهِ، قَالَ: فَإِنِّي لَا أُدْخِلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ }^٧

هذه حكمة الله سبحانه وتعالى.

٦ مسند البزار عن العباس

٧ الزهد والرقائق لابن المبارك عن عمار بن ياسر

" وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ " الله لن يُضل أحد، ولكن لن يعينه ولن يقويه ولن يساعده، وسيخزله إذا أراد أن يفعل طاعة، وسيتركه إذا توجه نحو الهداية والرعاية والعناية، ولكن نحن كما كان الصحابة يقولون:

اللهم لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينتنا علينا وثبتت الأقدام إذ لاقينا

فكيف تأتي هداية الله للمؤمن؟ يوجه المؤمن نحو كتابه، ويوجهه نحو نبيه، ويعينه ويُلهمه فعل الخيرات وعمل الطاعات، ويجعله يتلذذ بهذه الأعمال ليستزيد من هذه الأعمال النافعات.

لكن الآخر عندما يسمع القرآن كأنه لدغه ثعبان، فيريد أن يهرب، وهذا هو الخزلان، وعلامة الخزلان الذي خزله به الرحمن، لأنه سبحانه وتعالى لم يسبق له نحوه الهداية ولا العناية: " وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ "

الإنسان إن لم يوفقه الله بتوفيقه، ولم يعينه بعونه، وجعل في آذان قلبه وقرآ، وجئنا له بكل العلماء الأجلاء والصالحين والأتقياء، فهل يستطيعوا رفع الوقر الذي في قلبه ويسمعوه؟ مستحيل، ولا يستطيع أحد أن يهديه، لأن الأنبياء والعلماء والأولياء عليهم هداية البيان فقط: " إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ " (٤٨ الشورى) يبلغ فقط.

لكن هداية الإحسان، وهداية العيان، وهداية الاستجابة للرحمن على الله، ونضرب مثلاً، فلمؤذن الذي يؤذن في المسجد لصلاة الفجر، منا من يسمع ويستجيب، ومنا من يسمع ويقول: الوقت مبكراً وسأنام قليلاً، الذي استجاب لماذا استجاب؟ لأن الله وفقه وأيقظه وبعث فيه الهمة لطاعة الله والمسارة إلى الصلاة.

أما الثاني فتركه الله لنفسه، ووكله إلى حسه وجسمه، ولذلك هو مستيقظ ويسمع، وجسمه سليم وليس مريض، وليس عنده أي شيء يعوقه عن الصلاة، فلم لم يُثم للصلاة؟ هذا خزلان من الله، وعدم توفيق من الله، لنعرف جميعاً قول الله لنا في الصلاة: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "

(٥ الفاتحة).

نريد أن نعبدك ولكن اعطنا المعونة، لأنه إن لم تأت المعونة فماذا أفعل؟! هل أقدر أن أُحرك إصبع أو يد أو رجل دون أمر من يقول للشيء كن فيكون؟! لا، لذلك نحن في أمس الحاجة إلى توفيق الله ورعاية الله ومعونة الله.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا التوفيق لطاعته، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يجبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا، ويكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين، وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً زاهقاً وهالكاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يُلِّين جوارحنا وأجسادنا وقلوبنا لطاعته، وأن يجعل آذان قلوبنا مستجيبة لكتابه ونداء حضرته، وأن يوفقنا أجمعين لاتباع خير بريته.

وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم